صور من القاهرة المجهولة

فى تكايا الدراويش

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

الجو صحو ، والسماء صافيـة ، والشمس تفيض باشراقها على السفح فتكشف ظاهره وخافيه ، وتبدى قاصيه ودانيه ، وتطلعه مشهدا رائعا ، يملك اللب ، ويأخذ بمجامع القلب.

نحن بمرقاة المقطم ، نسعى الى قلته ، ونهدف الى قمته ، لنطلع القارئ صـورة غريبة من صور القاهرة المجهولة ، صورة باسمة ، أخاذة نفاذة ، لحياة نفر من هؤلاء القليلين الذين ساءهم المجتمع وما عليه ، فهجروه ونبذوه ، واعتصموا بالجبـل يحيون فيه شعائرهم ، ويقيمون فى خلواته مناسكهم .

فهناك فى قلب هذا الطود الأغبر الأشهب ، وفى موات صخره المجدب ، تتنفس الحياة عن زرع ناضر ونزل عامر ، يأوى اليه نفر من العابدين الزاهـدين من طائفة الدراويش المعروفين بالبكتاشية .

ما كان أمر البكتاشيـة بذى بال لولا أنهـا بقية نادرة من تلك التكايا العتيقة نطلع بها مشهدا ناطقا لحياة بعض السالفين ، ونستقرئ فيهـا تطور الوضع الاجتماعى ومدى تقدم الحاضرين .

فلقد لبث كهف المغاورى نيفا وسبعمائة سنة معزلا للزاهدين وخلوة للمعتزلين ، كان مقرا لطائفة الدراويش المعروفين بالجلاليين ، فلما قضى بمصر الشـيخ عبـد الله المغاورى ناقل طريقة البكتاشيـة عام ١٤٤٤ دفن فيـه ، غير أنه لم يصبح نزلا لرواد الطريقـة إلا فى عام ١٨٦٥

والبكتاشية طريقة صوفية غايتها الزهد ومقاومة الأهواء والتسامى بالاعتكاف على العبادة وهى تنتسب إلى السيد محمد بكتاش الخرسانى ، المتصدر كما يقول أتباعه من سـلاله الإمام على ، لذلك نراهم كشيعة العراق يقدسون الحسين ويحيون فى يوم عاشوراء ذكرى استشهاده فى حفلة يدعى اليها الوزراء والكبراء .

ومقر البكتاشية اليوم فى تيرانا بألبانيا وقد كان لها فى تركيا شأن عظيم حتى أن سلاطين آل عثمان كانوا يلثمون يد شيخها ولا يبعثون بحملاتهم فى الفتح إلا بعد أن يباركها الشيخ، وكان شعار الانكشارية أسورة ستة يعلقونها خلف عماماتهم رمزا ليد الشيخ بكتاش التى باركت لأول مرة جيش السلطان أورخان .

ميل سارت جى هارت . ميرجم ! !

ولم تطل حيرتى فى تفهم ماسمعت حتى عاد الدرويش لطفى الذى استقبلنى بباب التكية يفسر عبارته الألبانية فى عربية محرفة " أهلا وسهلا . . وجدناكم بخير " .

وقادنى مستقبل الى ردهة فسيحة حيث لاقانى السيد عابدين كاتم سر التكية الذى طاف بى أرجاء هذه الصومعة ، لا بل هذا الفردوس الرائع البديع .

ففى هذا المكان المعلق بين السماء والأرض ، أقام هذا النفر من الدراويش متحفا فنيا من أجمل متاحف البلد وأبدعها : فهناك مغارات حفرت فى الصخر لمسافات سحيقة فى وقت لم تعرف فيه المتفجرات ولا المفرقعات ، وهناك نافورات فريدة ولوحات فنية عديدة ومشارب رخامية ونصب تذكارية نسقت كلها باتقان على هذا الدرج المترامى الأطراف ، وهناك غير هذا إعجاز البشر : وآية مغالبة القدر ، هناك الأشجار الباسقة من نخيل وكافور نابتة زاهرة فى جوات الحجر الأصم فترى الدوحة بما بذل فى غرسها من عناية وسقاية قائمة على جدب منبتها وارفة الظل مستقيمة العود أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

هناك فى هذا النعيم المقيم تعيش تلك الفئة الزاهدة عيشا هنيئا على بساطته ، سعيدا على إملاقه وقلته وحسبى أن أصحبك قليلا الى جنبات هذا المنزل لترى بعض ما رأيت وشاهدت .

ونحن فى ردهة المدخل تجاه ضريح المغاورى ، كهف كبير نقشت على مدخله بالكوفية القديمة بعض آيات سورة الكهف تدلف الى داخله فاذا بك فى غار سحيق ، تكاد ظلمته تخفى ما فيه ، لولا بصيص خافت يتسرب من منفذه فيتكشف عن مقابر متجاورة ، مقابر شيوخ التكية من يوم تعميرها وتنتهى هذه المقابر بأسوار حديدية فيها ضريح المغاورى وقد زينت جدرانه بالرخام الكهرمانى وثبتت فيه لوحة تحمل اسم مجدده سمو الأمير كمال الدين حسين ، فاذا خرجت من هذا القبو الرهيب ألفيت نفسك فى روض يرد اليك أنفاسك ويوقظ نفسك ويزيد إحساسك : هذه معالم الصومعة تميزها لوحات مشيديها، هناك مدخل يحمل اسم حيدر بابا يجاوره بناء باسم لطفى بابا وآخر لعباس بابا وكلهم من المشايخ الذين

تولوا فى القدم أمر هذه المؤسسة . وتحمل لوحات هذه المنشآت أبياتا من الشعر التركى نورد ترجمة بعضها :

بقيت تكية المغاورى خرابا من سنين
وكان اليوم ينعق فى سقوفها ومبانيها
الى أن قيض الله لها خيرات العادل
أطال الله عمره ونقبل دعاءنا له .

ويقوم بستان التكة على مصاطب فسيحة منها ما فرش بالخضرة وما حلى بالفسيفساء الثمينة تتوسط أكثرها نافورات للماء بديعة الصنع ومشارب وأعمدة تحمل الشعار البكاشى وحوض يجرى فيه السمك و برج كبير يهدر فيه الحمام و فى الصومعة مغارة كبيرة تتلى فيها الأذكار ومساكن للشيخ ودتراويشه ومكتبة نقش على مدخلها الحديث . "أنا مدينة العلم وعلى بابها" .

ولا يزال الزائر فى سيره يستقبل هبوا بعد هبو وهو بينها لا يرى غير الخضرة بما فيها من زهر وورد حتى إذا أشرف على نهاية الروض لقى مبدانا صغيرا فيه أحواض عشب تزينها بعض الأشجار المتحجرة وتحوطها ثلاثة أضرحة : واحد لصاحب السمو السلطانى المغفور له الأمير كمال الدين حسين ، وآخر لإحدى الأميرات ، وثالث للشيخ الحالى وقد حلى الأخير بأبيات لشاعرنا المعاصر أحمد رامى نورد منها :

ثم قريرا بين القطوف الدوانى ... عند سفح المقطم القيتان
فى حمى ساكن المغاور عبد الـ ... ـله قطب الهدى وكنز الأمانى
إنها روضة سقيت ثراها ... وتعهدت غرسها بالحنان
يا نزيل الخصيب فى أرض مصر ... بين هذه الربى وتلك المغانى
رضى الله عن صنيعك فى الد ... نيا وأولاك نعمة الغفران

وفى ربى هذا الفردوس البديع حيث خلا المكان من كل حركة وصوت إلا خرير الماء ينساب من نافوراته ، وهدير الحمام يسجع فى مقصوراته ، وقفت فى برج الصومعة المشرف على الفضاء فاذا بالبلد واضحة ظاهرة ، لم تعد قاهرتنا اليوم خافية ولا مجهولة ، هذى آثار القديم وأطلاله تبين فى منحدر التل فتظهره متحفا عامرا بكل ثمين نفيس وتلك معالم التاريخ مسطورة على السفح تطالعك قصة الماضى وافية كاملة ، قصة ألف عام مرت على القاهرة محتفظة بروائعها ، مبقية لى آثارها وبدائعها ، هذا عز المعزيين فى مآذن الأزهر العريق ، وذلك مجد صلاح الدين يتجلى فى سور القاهرة العتيق ، وتجاهك مسجد محمد على بمئذنتيه وقبته

تشهد برخاء عهده وعظيم نهضته وبين هذا وذاك يتكشف الغطاء عن مقابر الخلفاء، ومدافن الأولياء، فيها الخرب السقيم ، والعامر السليم فإذا أرسلت الطرف إلى ما وراء هذه الأطلال، ألفيت العاصمة الحية تموج بساكنيها وتعج بذريها وأهليها، ربوع عامرة ، وأحياء زاخرة ، لكل ربع ذكره وبكل حي في النفس أثره ، هذى تلال زين العابدين بمدابغها ومخازنها فيها فعلة يعملون في أوضاع أبنا من قبل سوءها، وسألنا المعنيين بالأمر العمل على اصلاحها ، وهناك حي بولاق بما حوى من عشش وأخصاص بسطنا في هذه الصحيفة قضية ساكنيه وتجاهك أحياء الخيمة والمحجر ، والمغربلين ، والدرب الأحمر كلها مفتقرة إلى اصلاح ينهض بها ، وتنظيم يرقى بأمرها . وهناك عن بعد ترى النيل الجميل تشرف عليه العاصمة بأقبح مبانيها وأسوأ مافيها ، فهناك مصانع بولاق بمداخنها ومضارب الطوب بقبابها .

مولاى أحمد سرى بابا أفندم !

وغاص بي الفكر في بحر التأمل ونسيت أني في ندوة الدراويش وأن دراسة حالهم هي غايتي و بغيتي لولا صوت انبعث من ورائي حتى إذا عادت للذهن يقظته ألفيت نفسي في حضرة شيخ مهيب الطلعة تحف بوجهه المشرق لحية كبيرة بيضاء وقد ارتدى من فاخر الثياب مالا زراه في غير صور الأقدمين ولوحات الفنانين : قفطان من الحرير الفاخر يعلوه معطف من الفرو الأبيض النادر وقد تحلى صدره بنفائس التحف من مشابك ماسية وخنجر ثمين وسلاسل ذهبية أثرية .

واستوى الشيخ أحمد سرى بابا على مقعده في هيبة السلاطين وعظمة الحاكمين وبدأ يسألني رأيي فيما شاهدت؟ قلت : "جنة عالية قطوفها دانية وعيونها جارية" قال : وما ترى في حياتنا ؟ قلت : هذا ما أود استيضاحكم أمره، قال : "نحن هنا نعيش على الكفاف، ولكنا أغنياء بالقناعة سعداء بالايمان" قلت هل لكم أوقاف أو أموال ؟ قال : "لاهؤلاء ولاؤلاء فكل ماننا له من خزانة البلد سبعة وثلاثون قرشا كل شهر ، قلت : "إذا فمن أين يعيش الرجال، قال : "من فيض الله بما يبذله لهم أهل البر وما يقدمه لهم زوار التكية"، ثم اعتدل الشيخ وقال وهو يداعب بأصابعه حبات مسبحته العاجية : إنني ورجالي مدينون بحياتنا و كياننا للبيت العلوي الكريم وعلى رأسه مليك البلاد الصالح الذي تنازل يوما بتشريفنا بالزيارة فذلك الصومعة التي عمرت بأمر جده العظيم اسماعيل ، يقوم جل موردنا من فيض إحسان أمراء البيت المالك الكريم و إذا سألت الشيخ هل لرجاله عمل ما؟ أجاب : "كلهم يعملون ، يعملون في خدمة ضريح المغاوري وأضرحة من حل بيننا من الأمراء الأجلاء فضلا عن قيامهم بخدمة أنفسهم ونهوضهم بكل مايلزم التكية من كنس وسقاية " .

وإذ عنّ لى أن أسأل الشيخ قيود الطريقة قال : " لاشيء سوى الاستقامة وسلامة الإيمان ، فليس ثمة ما يمنع الدرويش أن يتزوج وينصرف إلى عمل فنحن مسلمون ، ولا رهبنة فى الاسلام إنما نقصر المأوى هنا على المنقطعين من الغرباء " .

ولم يشأ الشيخ أن أودعه قبل أن يمدنى برساله المطبوعة فى تاريخ طائفته فتقبلتها وانصرفت شاكرا للرجل ما بذل .

التكايا بين الأمس واليوم :

لعل أظهر ميزة فى الاسلام أنه لم يفرق بين الدين والدنيا ، ولا يرى فى تدين المرء ما يجيز انقطاعه عن السعى لكسب العيش ، إنما تقوم رسالة المؤمن على سعى يذرع فيه مناكب الأرض ليأكل من رزقه كما كان يفعل الأنبياء أنفسهم ، لذلك لم يعرف الاسلام التكايا كدور يركن إليها السليم ليأكل ويشرب دون عمل يؤديه للمجتمع ، لذلك لم تر للمسلمين الأولين غير ما سمى بالمربط ، وهو البيت الذى أعد للعجزة أو للمنقطعات من النساء واليتامى ، وهو ما يعدل الملجأ عندنا اليوم . أما التكايا الحاضرة فترجع إلى أصل أعجمى ، فاسمها القديم الخانقاه وهى كلمة فارسية معناها دار العبادة ، وكانت أول خانقاه أنشئت بمصر فى عام ٦٥٩ أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب للفقراء من الصوفية القادمين من البلاد النائية ووقف للصرف عليها أملاكا كثيرة ، وقد ظلت التكايا من ذلك الحين تزايد وتتكاثر فكان بها حتى سبعين سنة خلت أكثر من ثلاثين تكية أهمها تكية القوصية والقادرية بقصر العينى ، والرومى بالحجر ، والسليمانية بالسروجية ، والنقشبندية والهنود والمغاربة وغيرها . ولقد حركت سوء أحوال ما بقى من هذه التكايا وعدم اتفاق وجودها وروح مصر الناهضة وخاصة ما كانت عليه تكية المولوية القائمة بالسروجية التى لم يكن لرجالها الأشداء عمل غير اقامة حفلة راقصة كل أسبوع يقوم المشايخ بالرقص فيها رقصة عجيبة إذ يدورون فيها حول أنفسهم فى ملابس فضفاضة على أنغام الناى وكانت حفلة المولوية موضع تفكهة الناس وخاصة الأجانب ، لذلك قامت وزارة الأوقاف فى السنين الأخيرة بالغاء هذه التكايا كلها بعد أن استصدرت حكما بذلك من المحكمة الشرعية العليا ولم تبق غير تكيتين علميتين لإيواء الطلبة الغرباء وهما تكيتا الكلشنى وأبى الذهب .

وهكذا طويت صفحة هذا القديم ولم يبق للدراويش غير تلك الدار التى جلوت لك أمرها والتى لا نرى حرجا من بقائها كصورة أثرية نادرة وتذكار للقديم وخاصة أنها لا تكلف البلد شيئا وأن رجالها الخمسة عشر يقومون فعلا بعمل يؤجرون عليه هو خدمة الأضرحة القائمة بها ورعاية التكية التى تعتبر كما رأينا متحفا جديرا بالزيارة والعناية

محمد عبد الكريم